

# قضايا الأعيان وحكايات الأحوال



أ.د / جمال محمد سعيد عبد الغنى

الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن القاعدة الكلية إذا تقررت فإنما تتقرر بضم جزئيات كثيرة من مجموع الشريعة ينتظم منها معنى واحد أو أصل واحد يجري مجرى العموم ، فلا يقدح فيه تخلف جزئية عن الدخول تحته ، إنما الأصل إذا تقررت بشواهد من الكتاب والسنة وغير ذلك من الأدلة الشرعية ، فإنه يكون الحاكم على الجزئيات في الشريعة ، فلا يمكن بعد ذلك معارضته بجزئية واحدة وردت في نص معين ، لأن ذلك يعنى معارضة نصوص كثيرة بنص واحد ، وهو ما لا يصح شرعا ولا عقلا ، وأما عند معارضة قضية ما أو نص معين لأصل كلى متقرر في الشريعة ، فتكون هذه القضية قضية عين أو حكاية حال لا تقدح في ثبوت الأصل الكلى .

وقد ناقش أئمة أصول الفقه هذه المسألة في معرض دراستهم لقضية العموم الخصوص وخاصة الإمام الشاطبي " رحمه الله " الذى جلاها أحسن تجلية وبينها أوضح بيان في " الموافقات "

فقضايا الأعيان : هي القضايا التى تعارض بظاهرها قاعدة عامة أو مطلقة ثبتت هذه القاعدة بطريق النص العام أو الاستقراء الجزئي . وفى طرق ثبوت العموم يقول الإمام الشاطبي رضى الله عنه ( العموم إذا ثبت فلا يلزم أن يثبت من جهة صيغ العموم فقط بل

له طريقان :

أحدهما : الصيغ إذا وردت وهو المشهور في كلام أهل الأصول

والثاني : استقراء مواقع المعنى حتى يحصل منه في الذهن أمر

كلّي عام فيجزى في الحكم مجزى العموم المستفاد من الصيغ (١)

والدليل على صحة الطريق الثاني القائل باستقراء مواقع المعنى

حتى يحصل منه في الذهن أمر كلّي عام عدة وجوه:-

١- إن الاستقراء هكذا شأنه ؛ فإنه إن تصفح جزئيات ذلك المعنى

لينبث من جهتها حكم عام ، إما قطعي وإما ظني وهو أمر مسلم عند

أهل العلوم العقلية والنقلية فإذا تم الاستقراء على هذا الوجه خرجنا

منه بحكم عام متضمن الحكم على كل الجزئيات ، وإن لم تكن

جزئيات قد تصفحت فإن الحكم العام يشملها

ويشمل كل الجزئيات المتصفحة . . .

٢- إن التواتر المعنوي هذا معناه فإن حاتم وهو الذي ضرب به

المثل في الكرم حاتم الطائي ؛ إنما ثبت على الإطلاق من غير تقييد

وعلى العموم من غير تخصيص ، وينقل وقائع خاصة متعددة تفوق

الحصر ، مختلفة في الوقوع متفقة في معنى الجود ، حتى حصلت

للسامع معنى كلياً حكم به على حاتم وعلى غيره ممن وصفوا بالكرم

والجود . ولم يكن بخصوص الوقائع قادحاً في هذه الإفادة .

(١) أبو إسحاق الشاطبي ( إبراهيم بن موسى المالكى الغرناطى ) المولفقات فى اصول

سواء وجد شخص اسمه حاتم بخيل أو طائي من قومه وصف بهذه الصفة ، فلم تكن الجزئيات لتقدح في معنى عام كلى تصوره الذهن ٣- ان تغليب الجزئيات على الكليات لا يتأتى إلا في الامور الشوعية من باب سد الذرائع ، لأن السلف الصالح فعلوا ذلك من باب هذا الوجه مثل ترك الأضحية مع القدرة عليها وكإتمام عثمان الصلاة في حجة بالناس ، رغم أن القاعدة الكلية تجيز قصر الصلاة في السفر فهذه أمور خاصة لا قدم عليها إلا من باب سد الذرائع في المسائل الشرعية .

ويقرر الشاطبي قاعدة قضايا الأعيان فيقول ( إذا ثبتت قاعدة عامة أو مطلقة فلا تؤثر فيها معارضة قضايا الأعيان ولا حكايات الأحوال والدليل على ذلك أمور:-

أحدهما : إن القاعدة مقطوع بها بالفرض ، لأنه إنما نتكلم في الأصول الكلية القطعية وقضايا الأعيان مظنونة أو متوهمة .  
والمظنون لا يقف للقطعي ولا يعارضه .

الثاني :- ان القاعدة الكلية غير محتملة ، لاستنادها - الى الأدلة القطعية هي التي أنتجت هذه القاعدة و حددت معناها بحيث صارت لا تحتمل إرادة غير ظاهرها - الى الأدلة القطعية . وقضايا الأعيان محتملة لإمكان ان تكون على غير ظاهرها ، أو على ظاهرها وهي منقطعة ومستثناة - اى مع بقاء العموم في الباقي بعد الاستثناء من ذلك الأصل . فلا يمكن والحالة هذه إبطال كلية القاعدة بما هذا شأنه

والثالث : إن قضايا الأعيان جزئية • والقواعد المطردة كليات • ولا تنهض الجزئيات إن تنقض الكليات • ولذلك تبقى أحكام الكليات جارية في الجزئيات وإن لم يظهر فيها معنى الكليات على الخصوص كما في المسألة السفرية - فالعلة للرخصة في الإفطار أو القصر المشقة ، وليست محققة في الملك الذي يستعمل وسائل الترف في سفره - بالنسبة إلى الملك المترف ، وكما في الغنى بالنسبة إلى مالك النصاب والنصاب لا يغنيه على الخصوص وبالضد في مالك غير النصاب وهو به غنى - وهكذا ما بعده في الغنى بالنسبة إلى تحديد النصاب فيمن لا يجعله النصاب غنيا وعكسه

والرابع :- أنها لو عارضتها فإما أن يعملها معا • أو يهملها ، أو يعمل بأحدهما دون الآخر • أعنى في محل المعارضة : فإعمالهما معا باطل - لأنه يستلزم العمل بالضدين معا وهو ما لا يجوز - وكذلك إهمالها ، لأنه ، إعمال - لأن إهمال الدليلين أو التوقف فيهما فرع عن تعارضهما مع عدم الترجيح لاحدهما ، والواقع خلافه ، لأنه لا معارضة إلا عند التساوى - للمعارضة فيما بين الظني والقطعي وإعمال الجزئي دون الكلي ترجيح له على الكلي ، وهو خلاف القاعدة ، فلم يبق إلا الوجه الرابع وهو إعمال الكلي دون الجزئي وهو المطلوب (١)

فإن قيل إن ما ذكر يرد ويهدم بقاعدة أخرى وهي تقييد المطلق وتخصيص العموم •

(١) الشاطبي : الموافقات ج ٣ ص ٢٦١

وهذا قاعدة صحيحة عند الأصوليين الذين ارتضوا أخبار الأحاد بأن تكون سندا قويا من مصادر الاعتقاد والتشريع حيث أنهم لم يردوا خبر الواحد أو الاثنين أو الثلاث فلم يخطئهم ولم يكذبوهم خشية تخطئهم وتكذيبهم يترتب عليه تكذيب وتخطيء من نقلوا عنه عليه السلام وهؤلاء النقلة الرواة عدول ثقة رواياتهم لم ترد إلا من أجل وجهة نظر كمية لا كيفية ولكي يمكننا الرد على توهم المعارضة بين القاعدتين وهما قاعدة الكلى الذي لا تعارضه الأعيان ، وقاعدة تقييد المطلق وتخصيص العام نقول على الوجه الآتي:-

إن ما فرض في السؤال ليس من مسألتنا بحال ، فإن ما نحن فيه من قبيل ما يتوهم فيه الجزئي معارضا وفي الحقيقة ليس بمعارض ، فإن القاعدة إذا كانت كلية ، ثم ورد في شئ مخصوص وقضية عينية يقتضى بظاهره المعارضة في تلك القضية المخصوصة وحدها ، مع إمكان أن يكون معناها موافقا لا مخالفا ، فلا إشكال في أن لا معارضة هنا وهو ما هنا محل التأويل لمن تأول ، أو محل عموم الاعتبار إن لاق بالموضع الأطراح والإهمال كما ثبت لنا أصل التنزيه كليا عاما ثم ورد موضع ظاهره التشبيه في أمر خاص يمكن أن يراد به خلاف ظاهره ، على ما أعطته قاعدة التنزيه ، فمثل هذا لا يؤثر في صحة الكلية الثابتة وكما إذا ثبت لنا أصل عصمة الأنبياء من الذنوب ، ثم جاء قوله ( لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات )

ونحو ذلك فهذا لا يؤثر لاحتمال حمله على وجه لا يخرم ذلك الأصل ، وأما تخصيص العموم فشيء آخر لأنه إنما يعمل ببناء على ان المراد بالمخصص ظاهره من غير تأويل ولا احتمال . فحينئذ يعمل ويعتبر كما قاله الأصولي ، وليس ذلك ما نحن فيه (١)

فهذه جزئيات لا تقدر في القاعدة الكلية التي ثبتت بنصوص كثيرة أما تقييد المطلق فهذا إذا تعلق بأمر عام قيد بأمر خاص مفصل له مثل إطلاق اللحية يصادف فطرة الإنسان أو من الفطر العشر فمن تمسك هذا بهذا العام المطلق على سبيل انه غير ملزم لكن النبي ﷺ قيده بتخصيص قوله أعفوا المشارب أطلقوا اللحية هذا من جهة مسائل الشرع الخاصة بهذه القاعدة أما القاعدة الأخرى وهي عدم تعارض قضايا الأعيان للقضايا الكلية فهذا اشمل وأعم في مجال الأصول العقائدية حيث أن تلك القضايا العينية كانت لها حكايات أحوال خاصة بها تتناسبها وتتاسب مقتضاها مثل جزئية لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث لأن ذلك لا يقدح وعارض القاعدة الكلية في عصمة الانبياء . وأيضا نصوص التشبيه لله عز وجل من الاستواء واليدين والعين وما شابه ذلك فإن تلك النصوص لا تعارض القاعدة الكلية في تنزيه الله عز وجل كما ذكر الإمام الشاطبي عن ذلك .

ثم يقول الإمام الشاطبي في موضع آخر عن رسوخ تلك القاعدة وقبولها عقلا وموضوعا (إن الأمر الكلي إذا ثبت فتخلف

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٦٢



بعض الجزئيات عن مقتضى الكلى لا يخرجها عن كونه كليا ، وأيضا فإن الغالب الأكثرى معتبر في الشريعة اعتبار العام القطعي ، لأن المتخلفات الجزئية لا ينتظم منها كلى يعارض هذا الكلى الثابت .

هذا شأن الكليات الاستقرائية . وأعتبر ذلك بالكليات العربية ، فإنها أقرب شئ إلى ما نحن فيه ، لكون كل واحد من القبيلين أمر وضعي لا عقلي . وإنما يتصور أن يكون تخلف بعض الجزئيات قادحا ، في الكليات العقلية ، كما نقول . ما ثبت للشيء ثبت لمثله عقلا " فهذا لا يمكن فيه التخلف البتة ، إذ لو تخلف لم يصح الحكم بالقضية القائلة ما ثبتت للشيء لمثله " فإن كان كذلك فالكلية في الاستقرائيات صحيحة ، وإن تخلف عن مقتضاها بعض الجزئيات وأيضا فالجزئيات المتخلفة قد يكون تخلفها لحكم خارجة عن مقتضى الكلى فلا تكون داخله تحته أصلا . أو تكون داخله لكن لم يظهر لنا دخولها ، أو داخله عندنا لكن عارضها على الخصوص ما هي به أولى ، فالملك المترف قد يقال إن المشقة تلحقه لكن لا نحكم عليه بذلك لخفتها ، أو نقول في العقوبات التي لم يزدجر صاحبها : إن المصلحة ليست الإزدجار فقط ، بل ثم أمر آخر وهو كونها كفارة لأن الحدود كفارات لأهلها وأن كانت زجرا أيضا على إيقاع المفسد وكذلك سائر ما توهم أنه خادم للكلى . فعلى كل تقدير لا اعتبار بمعارضة الجزئيات في صحة وضع الكليات للمصالح<sup>(١)</sup>

ومن هذه القاعدة الأصولية سوف نذكر بمشيئة الله جملة ما ذكرته المرجئة في فهمهم الخاطئ للإيمان ثم نذكر بعدها القاعدة الكلية في فهم حقيقة الإيمان كما ارتضيناها لأنفسنا وسنلقى الله على ما

(١) الشاطبي / الموافقات ج ٢ ص ٥٣

ثانيا إيمان قلب. <sup>(١)</sup> وفيه يكون الاعتقاد عبارة عن - القبول

والرضا

قال تعالى ( رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك هو الفوز

العظيم ) <sup>(٢)</sup>

وقال تعالى ( الذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا

عنه ) <sup>(٣)</sup>

وقال تعالى ( رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي

ربه ) <sup>(٤)</sup>

(١) قال ابو حامد الغزالي : فى إحياء علوم الدين ط دار الصحابة ج ٣ ص يطلق على لفظ القلب معنيان أحدهما يطلق على الشكل الملموس للشكل الصنوبرى يوجد فى الجانب الأيسر من الصدر ويستخدم فى ضخ الدم لجميع أجزاء الجسم وهذا المعنى لا يهتما كثيرا فى موضعنا ، أما المعنى الآخر للفظ القلب وهو لطيفة ربانية ورحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة من القلب الجسماني يقصد به - للعقل أو المخ وما به من مراكز عصبية مدركة - وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه من تعلقه به يضاهى تعلق الاعراض بالاجسام والأوصاف الموصوفات أو تعلق المستعمل للآله أو تعلق المتمكن بالمكان

(٢) المسند رقم ١١٩

(٣) التوبة لية رقم ١٠٠

(٤) البينة رقم ٨

ب- المحبة كما قال تعالى ( قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (١)

وقال تعالى ( من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله (٢) )

وقال أيضا ( والذين آمنوا أشد حبا لله (٣)

ج- والتسليم كما قال تعالى ( فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرج مما قضيت ويسلموا تسليما (٤)

وقال ( ولما رء المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما (٥)

وقال تعالى : إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت

(١) سورة آل عمران رقم ٣١

(٢) سورة المائدة آية رقم ٥٤

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٦٥

(٤) سورة النساء آية رقم ٦٢

(٥) سورة الاحزاب آية رقم ٢٢

إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلاها واحدا ونحن له مسلمون<sup>(١)</sup>

وقال تعالى (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وأتبع ملة إبراهيم حنيفاً وأتخذ الله إبراهيم خليلاً<sup>(٢)</sup>) وقال أيضاً (من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد أستمسك بالعروة الوثقى<sup>(٣)</sup>) وقال تعالى (فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين<sup>(٤)</sup>)

د- والخوف لأبد وأن يكون قلب المؤمن خائفاً من الله عز وجل وحده دون غيره قال تعالى (وأُنذِرُ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ<sup>(٥)</sup>)

قال تعالى : (يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه<sup>(٦)</sup>)

وقال تعالى ( يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار<sup>(٧)</sup>)

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢١ إلى ١٢٣

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٥

(٣) سورة لقمان آية رقم ٢٢

(٤) سورة الحج آية رقم ٣٤

(٥) سورة الأنعام آية رقم ٥١

(٦) سورة الإسراء آية رقم ٥٧

(٧) سورة النور آية رقم ٣٧

وقال أيضا ( إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياؤه فلا تخافوهم  
وخافون إن كنتم مؤمنين )<sup>(١)</sup>

هـ- والرجاء قال تعالى ( أولئك يرجون رحمة الله )<sup>(٢)</sup>

وقال ( ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم  
يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما  
حكيمًا )<sup>(٣)</sup>

وقال أيضا ( يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون  
رحمته )<sup>(٤)</sup>

و- التوكل عليه سبحانه وتعالى قال تعالى ( إن الحكم إلا لله  
عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون )<sup>(٥)</sup>

وقال تعالى ( والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون )<sup>(٦)</sup>

وقال تعالى ( واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون )<sup>(٧)</sup>

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٥

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢١٨

(٣) سورة النساء آية رقم ١٠٤

(٤) الإسراء آية رقم ١٧

(٥) سورة يوسف آية رقم ٦٧

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٢٣

(٧) التوبة آية رقم ٥١

وقال تعالى ( ومن يتوكل على الله فهو حسبه )<sup>(١)</sup>

ز- الولاء كما قال تعالى ( لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من

دون المؤمنين )<sup>(٢)</sup>

قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من

دون المؤمنين )<sup>(٣)</sup>

وقال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى

أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتوله منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي

القوم الظالمين )<sup>(٤)</sup>

وقال تعالى ( والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض )<sup>(٥)</sup>

وقال تعالى ( الذين كفروا بعضهم أولياء بعض )<sup>(٦)</sup>

ح- البراء قال تعالى ( إن الله بريء من المشركين ورسوله )<sup>(٧)</sup>

(١) سورة الطلاق آية رقم ٣

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٨

(٣) النساء آية رقم ١٤٤

(٤) المائدة آية رقم ٥١

(٥) سورة التوبة آية رقم ٧١

(٦) الأنفال آية رقم ٧٣

(٧) سورة التوبة آية رقم ٩

قال تعالى ( أنتم بريئون مما أعمل وأنا بري مما تجرمون ) (١)

وقال تعالى ( براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتكم من المشركين ) (٢)

وقال أيضا ( قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين آمنوا معه إذ قالوا لقومهم أنا برءاء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بانيكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ) (٣) كله من الله والى الله وهذا هو الإذعان القلبي المستلزم للانقياد ظاهرا وباطنا وهذا بخلاف الإيمان العقلي فقط دون الإيمان القلبي الذي اقر به إبليس والمشركون والكفار واليهود والنصارى ، أما الإيمان القلبي هذا فهو توحيد الألوهية وهو يزيد وينقص بحسب قبول العبد وتسليمه ورضاه وتوكله على الله وخوفه من الله ورجاءه في الله وولائه للمؤمنين وبرءاءه من المشركين والكفار

وللقلب مكانة عظيمة في الإسلام خصوصا عند الله سبحانه وتعالى فلا يمكن ان نقابل الله إلا بقلب سليم نقيًا خاليًا من الكفر والشرك والرياء ملئًا بالإيمان والقبول التسليم والمحبة لله عز وجل قال تعالى ( وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ) (٤)

(١) سورة هود آية رقم ٣٥

(٢) سورة التوبة آية رقم ١

(٣) الممتحنة آية رقم ٤

(٤) الصافات ٨٤

وقال أيضا ( إلا من أتى الله بقلب سليم<sup>(١)</sup> ) وقال النبي ﷺ ( إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب )

وقال ﷺ أيضا : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم<sup>(٢)</sup>

فهذه هي مكانة القلب عند الله ﷻ التي ارتضاها بأن يكون وعاء للإيمان الحق من توحيد الألوهية من تسليم ومحبة وخوف ورجاء وولاء وبراء ، كله من الله وإلى الله عز وجل وكما روى عن رب العزة انه قال لم تسعني سماواتي ولا ارضي ولكن ساعني قلب عبدي المؤمن (من هنا يتبين لنا ان من قال من اهل السنة في الإيمان هو التصديق على ظاهر اللغة انهم إنما عنوا التصديق الإذعاني المستلزم للإنقياد ظاهرا وباطنا بلا شك لم يعنوا مجرد التصديق . فإن إبليس لم يكذب في أمر الله له بالسجود وإنما أبى عن الانقياد كفرا ، واستكبارا واليهود كانوا يعتقدون صدق الرسول ﷺ ولم يتبعوه وفرعون كان يعتقد صدق موسى ولم ينقد بل جحد بآيات الله ظلما وعلوا ، فأين هذا من تصديق من قال الله تعالى فيه . ( والذي

(١) سورة الشعراء اية رقم ٨٩

(٢) صحيح مسلم : بشرح النووي : كتاب البر ١٠ باب تحريم ظلم المسلم وخذله رقم الحديث



جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ) وأين تصديق من قال الله تعالى فيهم ( قالوا سمعنا وعصينا وقالوا أنتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ) من تصديق من قالوا • (سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير )<sup>(١)</sup>

قال أبو منصور الماتريدي ( والكفر ضد الإيمان ، وبالإيمان نستغنى عن الكفر • وقال تعالى : ( إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ) وقال أيضا : ( ومن يفعل ذلك يلحق أثاما )

وإذ ثبت أن المنافقين كفرة في التحقيق ، كذبة في قولهم بما قال الله ، \* والله يشهد أن المنافقين لكاذبون \* وقال : يوم يبعثهم الله جميعا أخبر أنهم كذبة ، فجعل قول الإسلام منهم على جحوده القلب كذبا فمن جعل ذلك إيمانا - على أن الإيمان في اللغة هو التصديق - فقد جعل الشيء ضده وذلك فاسد<sup>(٢)</sup> فتدبر عند مقارنتك بين الإيمان والكفر وبين التكذيب والتصديق

ثالثا الإقرار اللساني والإعلان عما يمكنه عقل وقلب الإنسان من وجود الإيمان العقلي والقلبي بمعنى الإقرار بالشهادتين قال تعالى

(١) الشيخ حافظ آل حكيم : مختصر معارج القبول - ج ٢ ص ٢٣

(٢) أبو منصور الماتريدي : كتاب التوحيد - تحقيق فتح الله خليف طبعة دار الجامعات

المصرية ص ٢٧٥

( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخلفوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون<sup>(١)</sup> )

قال تعالى ( وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به أنه الحق من ربنا<sup>(٢)</sup> )

وقال تعالى ( قل آمنا بالله وما أنزل علينا<sup>(٣)</sup> )

وقال تعالى ( شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة أولوا العلم

قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم<sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( قالوا آمنا

بأنه وأشهد بأننا مسلمون<sup>(٥)</sup> )

والدليل على أن هناك إيمان لساني فقط لا يخرج إلا من الفم

هو قول الله تعالى عن المنافقين ( يا أيها الرسول لا يحزنك الذين

يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم

.....<sup>(٦)</sup> هؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا إيمانهم بألسنتهم دون

قلوبهم ، فقلوبهم خربة فارغة من القبول والتسليم للرسول ولدينه ،

خالية من التوكل على الله ولمحبة لله ولرسوله والخوف من الله

والرجاء في الله والولاء لله ولعبادة المؤمنين والبراء من أعداء الله

(١) فصلت آية رقم ٢٠

(٢) القصص آية رقم ٥٣

(٣) سورة آل عمران رقم ٨٤

(٤) سورة آل عمران رقم ١٨

(٥) سورة آل عمران رقم ٥٢

(٦) المائدة رقم ٤١

والمؤمنين قد قال الله عنهم ( إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم ءامنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون )<sup>(١)</sup>

وأما الشرطان فهما عبارة عن شرط صحة وهو أعمال ترك ، وشرط كمال وهي أعمال فعل

أولا شرط الصحة يشترط لصحة الإيمان العقلي والقلبي واللساني أمران يختصان بترك فعل ، لأن ترك الفعل فعل كما سيتضح في الآتي :-

أ- ألا توجد قرينة تدل على خلاف إدعاء الإنسان بأن لديه إيمان قلبي أولا وعقلي ثانيا ولساني ثالثا مثل القرائن الكفرية كإهانة المصحف أو السجود لصنم أو للشمس أو التوجه لغير الله من خوف أو رجاء أو توكل ، ما شابه ذلك فإن ذلك يعد كفرا صريحا وخروج من دائرة الإيمان ( قال البغدادي ) قال أصحابنا أن أكل الخنزير من غير ضرورة ولا خوف وإظهار زي الكفرة في بلاد المسلمين من غير إكراه والسجود لصنم وما جرى مجرى ذلك من علامات الكفر،

(١) المنافقون آية رقم ٣٢ و٣٣

وإن لم يكن في نفسه كفرا إذا لم يضامه عقد القلب على الكفر ومن فعل شيئا من ذلك أجرينا عليه حكم أهل الكفر وإن لم نعلم كفره<sup>(١)</sup>

ب- ألا يجحد أى شئ معلوم من الدين بالضرورة قل أو كثر فإن ذلك يعد كفرا صريحا وخروج من دائرة الإيمان مثل جحد الصلاة عمدا

قال البغدادي ( أما تارك الصلاة فإن تركها على استحلال فهو كافر )<sup>(٢)</sup>

قال سفيان بن عيينه من تركها ( أى خلة من خلل الإيمان خصوصا الصلاة كان عندنا كافرا )<sup>(٣)</sup>

ثانيا شرط الكمال : يشترط لكمال الإيمان أن يقدم الإنسان على أمرين حتى يكتمل إيمانه - إذا فعل ذنب أو خطيئة صغيرة أو كبيرة بدون جحد لحرمة المشرع لها أو ترك أمرا من باب الكسل قال البغدادي (وإن تركها عن كسل أى الصلاة قال الشافعي رحمته أنه يؤمر بالصلاة فإن صلى والا قتل وأجاز الصلاة عليه لأنه ليس بكافر وقال أبو حنيفة يؤدب حتى يصلى ولا يقتل)<sup>(٤)</sup>

(١) عبد القاهر البغدادي : أصول الدين منشورات دار الافاق الجديدة بيروت لبنان ص ٢٦٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٧

(٣) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري في شرح صحيح البخارى ج ١ ص ١٢٨

(٤) البغدادي : اصول الدين ص ٢٦٧

فقد تركها كسلا وليس من باب الجحود فإن يجب عليه الإنابة والتوبة الى الله ﷻ لأن الشرع الحنيف باقى عليه فقد شرع تأديب العاصي بالحدود والتعذير ليعود الى حظيرة الإيمان فيكتمل إيمانه . وهذا من باب حكمة المشرع ﷻ بحبه لخلقه وبقاءه عليهم

ب- الأعمال التى من باب التطوع والنوافل والمستحبات الى جانب الأذكار من تسيحات وتحميدات وتكبيرات ، كل هذه الأعمال تجعل الإيمان كاملا ولذلك حثنا الشارع الحكيم على فعلها حتى يكتمل إيماننا قال تعالى ( فأذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( اذكروا الله كثيرا ) <sup>(٢)</sup>

وقال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا ) <sup>(٣)</sup>

ولكن لم يوجبها ﷻ على عبادة المؤمنين من باب تفاوت قدراتنا فالذي يأتيها بقدر استطاعته يكافأه الشرع بزيادة حسناته فيكتمل إيمانه

روى عن السلف أن الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وهذا من خلال فهمهم لنص القرآن الكريم والسنة المطهرة - الدالين على ذلك -

(١) سورة النساء اية رقم ١٠٣

(٢) الانفال اية رقم ٤٥

(٣) الاحزاب اية رقم ٩ و ١٠

قال تعالى (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) (١)

وقال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) (٢)

وقال تعالى (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) (٣)

وكلام الصحابة رضى الله عنهم فى هذا المعنى كثيراً أيضاً .  
 منه : قول أبى الدرداء رضي الله عنه : من فقه العبد ان يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد ان يعلم أيزداد هو ام ينقص ، وكان عمر رضى الله عنه يقول لأصحابه : هلوا نزداد إيماناً ، فيذكرون الله تعالى عز وجل . وكان ابن مسعود رضي الله عنه عن يقول فى دعائه : اللهم زدنا إيماناً يقيناً وفقها . وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل : أجلس بنا نؤمن ساعة (٤)

ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد إستكمل الإيمان : إنصاف من

(١) الانفال رقم ٢

(٢) التوبة رقم ١٢٤

(٣) سورة الفتح رقم ٤

(٤) رواه ابن ابى شيبه فى الإيمان رقم ١٠٥ وكذا ابو عبيد فى الإيمان لسند صحيح عنه وعاقه

البخارى فى صحيحه رقم ٢ مختصر البخارى طبع المكتب الاسلامى

نفسه ، والانفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالم (١) ذكره البخارى رحمه الله فى صحيحه (٢)

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال ( الإيمان يبدأ لمظة بيضاء فى القلب كلما ازداد الإيمان إزدادت بياضا حتى يبيض القلب كله وأن النفاق يبدأ لمظة سوداء فى القلب فكلما إزداد النفاق إزدادت حتى يسود القلب كله (٣)

قال الأجرى : حدثنا حفص بن محمد الصندى بسنده عن عمير بن حبيب قال : الإيمان يزيد وينقص فقل وما زيادته ونقصانه ؟ قل : إذا ذكرنا الله وَجَلَّ جَلُّهُ وحمدناه فذلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه (٤)

وهكذا تتحقق القاعدة الكلية فى مفهوم الإيمان بأجزاءه الثلاثة من الإيمان العقلى والإيمان القلبى والإيمان اللسانى ، وبشرطى الصحة الكمال فالنسبة للإيمان العقلى وهو توحيد الربوبية فيه وحده لا يقبل الإيمان عند الله وَجَلَّ جَلُّهُ حيث خلا من النزوع القلبى المستلزم للإنقياد وهذا ما فعله إبليس والكفار والمشركين واليهود والنصارى

(١) رواه ابن أبى شيبه فى الإيمان رقم ١٣١ بإسناد صحيح عنه موقوفاً ولورده البخارى فى

الإيمان معلقاً مجزوماً موقوفاً رقم ٩ فى مختصر البخارى

(٢) انظر أبى العز : شرح العقيدة الطحاوية طبعة المكتب الإسلامى سنة ١٩٨٤ ص ٢٤٣

(٣) أبى بكر بن أبى شيبه : الإيمان : ط المدنى ص ٩

(٤) الأجرى : الشريعة طبعة السنة المحمدية ص ١١١

من عدم إنتزاعهم القلبي لما جاء به النبي ﷺ ولما رضى الله به من دين وهو الاسلام ، أى الإستسلام بكل ما نملكه عز وجل حيث القبول والتسليم لله عز وجل والتوكل على الله والخوف من الله ، والرجاء فى الله والدعاء لله ، والولاء لله ولأهل ولعبادة المؤمنين ، والبراء من أعداء الله ومعاداتهم والتقرب إلى الله بتلك العداوة لهؤلاء اللذين لم يقبل الله ولم يقبله أو امره ونواهيه وكل ما جاء منه سبحانه وتعالى ، وهذا توحيد الألوهية المقبول عند الله مع توحيد الربوبية وإذا عرفنا الأخير فهو اعتقاد العبد في وجود الله ﷻ وأفعاله ، وإذا عرفنا الأول وهو توحيد الألوهية فهو إنفعال قلب العبد تجاه اعتقاده في توحيد الربوبية وما يقوم به هو نفسه تجاه الله عز وجل بانفعال قلبى داخلى أو باطنى تجاه الله ﷻ وانفعال خارجى يعبر عنه بلسانه فينطق بالشهادتين وهذا هو إيمان اللسان المترجم لما يكنه القلب والعقل من توحيد ألوهية وربوبية معا ويلزم لصحة هذا كله تركه لأفعال وقرائن تصحح إيمانه ، فعدم الفعل فعل ، وعدم العمل عمل بمعنى ان عدم الآتيان بأى قرينة كفرية فكأنه صحح إيمانه بعدم إقترافه وفعله تلك القرائن الكفرية التى تفسد وتبطل ادعائه بالإيمان ، وعدم جوده لأى أمر معلوم من الدين بالضرورة يعد عمل وفعل يصحح إيمان العبد كما قال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما )<sup>(١)</sup>

(١) النساء رقم ٣١



(وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن نتقوا الله يجعل لكم فرقانا  
ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) (١)

وأما شرط كمال الإيمان فيتحقق بإحساس العبد دوماً بالنقصان  
أمام الله عز وجل وإنابته واستغفاره وتوبته دوماً أمام أى ذنب أو  
معصية أو خطيئة يرتكبها الإنسان حيث عدم الإصرار على الذنب أو  
تعمد فعله ، أو استحلال حرام حرمه الله فكل ذلك يجب على العبد  
التوبة منه والاستغفار الدائم لله بعدم الإصرار كما قال تعالى (   
والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم  
ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على فعلوا وهم يعلمون أولئك  
جزائهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها  
ونعم أجر العاملين) (٢)

فضلا على حرص الله ﷻ على زيادة كمال أيمان العبد  
بالنوافل و والتسبيحات والتحميدات والتكبيرات كما قال تعالى (يا أيها  
الذين آمنوا أذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) (٣) وقال  
تعالى أيضا (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر  
الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) (٤) .

(١) الانفال ٢٩

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٥ و ١٣٦

(٣) سورة الأحزاب رقم ٤١ و ٤٢

(٤) المنافقون آية رقم ٩

## ثانياً أبو طالب

كان أبو طالب حصن رسول الله ﷺ في مكة يدافع عنه ويمنع المشركين من نيلهم منه وأستمر ذلك عشر سنين منذ أن بعث النبي ﷺ وحتى هلك أبو طالب قبل الهجرة بثلاث سنين قال ابن إسحاق ( كان أبو طالب عضد رسول الله ﷺ وحرزا في أمره ومنعة ناصرا على قومه )<sup>(١)</sup>

وتمنى النبي ﷺ أن يدخل عمه أبو طالب في الإسلام وقد حضر مرضه الأخير وطلب منه التفضل بالشهادتين حتى يشفع له بهما عند ربه ولكنه أبى ومات على الشرك

( روى الصحيحين والنص للبخاري . عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره أن رسول الله ﷺ دخل على أبي طالب عند موته وعنده أبو جهل وعبد الله ابن أبي أمية ، فقال : يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وابن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ، فقال : أنا على ملة عبد المطلب

وأبى أبو طالب أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ ( أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك )<sup>(٢)</sup>

(١) ابن هشام : المسيرة النبوية - حققها وضبطها ابراهيم الايبارى طبعة تراث الإسلام :

ج ١ ص ٢١٧

(٢) البخارى / صحيح البخارى / كتاب الجنائز باب اذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله

ج ١ ص ٢٣٥

فأنزل الله تعالى فيه ( ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا  
للمشركين )<sup>(١)</sup> وظاهر الحديث يقتضى أن عبد المطالب مات على  
الشرك<sup>(٢)</sup>

وزعمت المرجئة أن الإسلام الدخول فيه بكلمة والنجاة من  
النار بهذه الكلمة وهى الشهادتين ، وزعموا أن من أثبت أى عمل مع  
الشهادتين فإنه يكون مماثلا للخوارج .

والأمر بخلاف ما زعموا فإن الإيمان اعتقاد عقلي وانفعال  
قلبي وتلفظ باللسان ، والعمل يصدق ادعاء اللسان بأن العقل مصدق  
والقلب منقاد ومسلم لله ﷻ ولشرعه ، ورغم أن أبو طالب يحب النبي  
ﷺ ويدافع عنه إلا أنه كان غير قابلا وراضيا ومسلما لما جاء به  
النبي ﷺ وهذا هو الالتزام بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله

(كان أبو طالب وغيره يحبون النبي ﷺ ويحبون علو كلمته  
وليس عندهم حسد له ، وكانوا يعلمون صدقه ، ولكن كانوا يعلمون  
في متابعتة فراق دين آبائهم وذم قريش لهم ، فما احتملت نفوسهم  
ترك العادة واحتمال هذا الذم ، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بل لهوى  
النفس ، فكيف يقال أن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله<sup>(٣)</sup>)

(١) التوبة اية رقم ١١٣

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ١ ص ٢١٧

(٣) ابن تيمية : الإيمان ص ١٦٤

إن الشهادة وحسب لا تنجى من النار لأن من لوازمها ترك المنهيات والقرائن الكفرية وأيضا من لوازمها قبول الشرع والعمل به بقدر الاستطاعة بحيث لا يكحل الإنسان ولا ينكر أى شئ من شرع الله عز وجل قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم . . . . .)<sup>(١)</sup>

وقد اختلف في أن الألفاظ هل تراد لذواتها أو لمعانيها ؟ فإن من قال إن الألفاظ تراد لذواتها كان من لازم قوله أن من تلفظ بكلمة التوحيد - لا إله إلا الله - لم يكن قد خرج عن مقتضى اللفظ مع بقاءه على ما كان عليه من القرائن الكفرية مثل التحاكم الى الكهان وعبادة الأصنام ومولاة المشركين والنذر للاث والعزى والتبرك لتقربه الى الله زلفى والذبح على النصب ، وهذا ما زعمته المرجئة من أن الإيمان قول وأيضا زعمت الجهمية بأن الإيمان معرفة .

وقد أحتج عليهم الإمام أحمد بما أفحمهم في هذا المجال ، قال أحمد ويلزمه أن يقول هو مؤمن بإقراره ، وإن أقر بالزكاة في الجملة ولم يجد في كل مانتى درهم خمسة أنه مؤمن ، فليزمه أن يقول : إذا أقر ثم شد الزنار في وسطه وصلى للصليب وأتى الكنائس والبيع وعمل الكبائر كلها إلا أنه في ذلك مقر بالله فيلزمه أن يكون عنده مؤمنا ، وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم)<sup>(٢)</sup>

(١) التعلين رقم ١٦

(٢) ابن تيمية : كتاب الإيمان ص ٣٤٩

وهذا تكذيب لصريح القرآن ، فعلم أن الألفاظ إنما تتراد لمعانيها وإن كلمة التوحيد تتضمن توحيد الألوهية والربوبية معا بالإضافة إلى توحيد الأسماء والصفات بعد إيقافه عليها ، وإيمانه بها جملة وعلى الغيب قبل ذلك لأن الإيمان بالأسماء والصفات من سنن الاعتقاد . ولم نسمع أن أحد علماء الأة قد كفر فرق كلامية تأولت صفات الله عز وجل فعطلت بزعم التنزيل ، والمعتبر في كلمة التوحيد بصورة أساسية هو توحيد الألوهية مع الربوبية ، فقد جاء النبي ﷺ من أجل تذكير العباد بتوحيد الربوبية ، وإلزامهم بتوحيد الألوهية ، وتعليمهم توحيد الأسماء والصفات فوظيفة النبي ﷺ انحصرت في التذكير والإلزام والتعليم .

وكما ذكرنا سابقا أن الالتزام بتوحيد الألوهية هو الخاص بالعبادة في إياك نعبد ، والعبادة متضمنه ترك القرائن الكفرية وجحود الأوامر الشرعية هذا من جانب إلى جانب العمل نفسه بمقتضى الأوامر من قبل الله عز وجل وفعلها بقدر الاستطاعة .

فبالنسبة للترك فترك العمل عمل وهذه قاعدة من قواعد أصول الفقه كما قال النبي ﷺ لما سئل عن الإسلام ( إن تقول أسلمت وتخليت )

( يقول محمد نصر الدين المرزوى ) فمن كان ظاهره الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب ، فهو منافق نفاقا ينقل عن الملة

ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد<sup>(١)</sup>

فالإيمان عقد بالغيب ولا بد أن يظهر - ذلك من لوازم الإسلام سواء بالترك والقرائن الكفرية وجحود الشرع أو بفعل أركان الإسلام بقدر الاستطاعة والطاقة

وعلى ذلك فإن الإقرار وحده لا يكفي في إثبات الإيمان وإن المعرفة أيضا لا تكفي في النجاة من النار فلا بد من الإقرار والمعرفة والانقياد والالتزام بطاعة الله ونواهيه

قال ابن القيم ( أن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله ﷺ أنه نبي لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته فإذا تمسك بدينه بعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه نظير هذا قول الخبرين له وقد سألاه عن ثلاث مسائل فلما أجابهما قالَا تشهد أنك نبي قال فما بمنعكما من أتباعي، قالَا نخاف أن نقتلنا اليهود ولم يلزمهما بذلك الإسلام ونظير ذلك شهادة عمه أبو طالب بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية دينا ولم تخله هذه الشهادة في الإسلام ومن تأمل مافى السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام علم أن الإسلام أمر

(١) ابن تيمية / الإيمان ص ٢٨٦

وراء ذلك وأنه ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً<sup>(١)</sup>

كان أبو طالب يدرك معنى دعوة رسول الله ﷺ ويفهم أن معنى التلغظ بالشهادتين يترتب عليها التزامات أهمها التخلي عن الشرك ومظاهره من القرائن الشركية وهى عبادة الأصنام والتقرب إليها ، ثم بعد ذلك التخلي بإثبات عبادة الواحد الأحد الذى يتوجه إليه بالدعاء والشعائر والنسك والتوكل عليه والخوف منه والرجاء فيه والولاء له سبحانه ولرسوله وللمؤمنين ، والبراء من أعداء الله ورسوله والمؤمنين

وهذا ماجاء من أجله النبي ﷺ فقد جاء من أجل مناقشة قضية توحيد الألوهية ، وهذه هى القضية المثارة فى القرآن بأثرة دون قضية توحيد الربوبية ، لأن مشركى مكة كانوا موحدين للربوبية دون الألوهية ، وقد رفضوا هذا التوحيد الأخير لما كانوا يدركونه من التزام من النطق بالشهادتين ، وهذا ما ذهب إليه عم الرسول أبو طالب من رفضه النطق بالشهادتين حتى قبل موته فهم أبو طالب أن معنى الالتزام بالشهادتين هى مقتضى النطق بالشهادتين ، والتي طلب منه الرسول ﷺ أن يتلغظ بها حتى يشفع له بها عند الله وأبو طالب كان قد قدم ولائه فى العشر سنوات فى أول الدعوة فكان يدافع عن

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد المكتبة المصرية ح ٣ ص ٤٢

النبي ﷺ ويحميه من كفار مكة أو من مشركي مكة ، لكنه كان يشاركهم طقوس كفرهم ومراسم شركهم وعندما رفض أبو طالب قبل موته التلغظ بالشهادتين ، لم يكن يقصد التلغظ بالكلمة ذاته ولكن رفض المثلول لمعناها ومحتواها والالتزام بها من توبة وإنابة الله رب العالمين لا شريك له وحدة دون غيره وكان النبي يبشر كل كافر ومشرك بأن إسلامه يجب ويمحو كل ما قبله بشرط التوبة النصوح والإنابة الخالصة لوجه الله ﷻ ، بل إن الله سبحانه بفضله وكرمه على عبادة يبذل السيئات حسنات قال تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخذ فيه مهاناً ، إلا من تاب وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) (١) فهذه هي كلمة التوحيد الخالصة لله ﷻ وما أشير به من موقف عم الرسول ﷺ من نجاته بالتلفظ بالشهادتين فهذا ليس مقياس وقاعدة كلية لثبوت الإيمان ، بل هذه قضية عين وحكاية حال أبو طالب الذي تنمى النبي ﷺ أن يموت على ملة إبراهيم حنيفاً ملة الإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين ، فحال أبو طالب كان حاله خاصة لا يشكل قاعدة كلية في أن الإيمان يثبت على فراش الموت بالتلفظ بالشهادتين بل إن التزام الشهادتين له قرائن تركيبه ،

(١) سورة الفرقان آية رقم ٦٨ و ٦٩ و ٧٠



بمعنى أن ترك قرائن الشرك والكفر يعد هذا عمل كما أشرنا مسبقاً أن ترك الفعل فعل ، وأبو طالب كان لا يكف عن إتيان هذه القرائن الكفرية ( وهو في ذلك كله يعلم أن رسول الله ﷺ صادق بار راشد ، ولكن مع هذا لم يؤمن قلبه • وفرق بين علم اللب وتصديقه وشاهد ذلك قوله تعالى ( الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون )

وقال تعالى في حق فرعون ( وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ) وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ) وقول بعض السلف في قوله تعالى ( وهم ينهون عنه وينأون عنه ) أنها نزلت في أبي طالب حيث كان ينهى الناس عن أذية رسول الله ﷺ وينأى هو عما جاء به الرسول من الهدى ودين الحق<sup>(١)</sup> وكلمة الشهادة هي التي كان يطلبها النبي ﷺ من قومه وقد مكث فيهم ثلاث عشر عاما بمكة يحاول ويجاهد في أن يتلفظوا بها لكنهم أدركوا من التزام يترتب على التلفظ بها ، فكان الرسول ﷺ يطلب من صناديد قريش الشهادة فيأبون ( وكان أبو طالب يقول ( والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا • قال فطمع رسول الله ﷺ فجعل يقول له أي عم فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة " فلما رأى حرص رسول الله ﷺ

(١) ابن كثير : البداية والنهاية مكتبة المعارف مكتبة النصر ج ٢ ص ١٢٦

## ثالثا خديجة بنت خويلد

أول من أسلم من النساء هي السيدة خديجة بنت خويلد وكان إسلامها ثابتا بتلفظها الشهادتين ، لكن لم تقم رضي الله عنها بأى شعيرة من فرائض الشرع لأن الصلاة لم تكن فرضت بعد فقد توفيت رضي الله عنها في السنة العاشرة من البعثة وبعد ذلك فرضت الصلاة في رحلة الإسراء والمعراج قال ابن كثير (قال يعقوب بن سفيان حدثنا أبو صالح حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب ، قال عروة بن الزبير كانت خديجة قد توفيت قبل أن تفرض الصلاة ، ثم روى عن الزهري انه قال : توفيت خديجة قبل خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة وقبل أن تفرض الصلاة وقال محمد بن إسحاق ماتت خديجة وأبو طالب في عام واحد<sup>(١)</sup> .

وكانت للسيدة خديجة مكانة عالية عند النبي ﷺ، لما أبدته رضي الله عنها من وقفات شهد بها النبي ﷺ، حيث أزرته في شدته ، وأيضا للسيدة خديجة مكانة عالية عند الله في الآخرة شهدت بذلك الأحاديث الصحيحة روى البخارى (قال عبد بن جعفر سمعت عليا رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ، ولم يقول قال خير نساءها مريم وخير نساءها خديجة ورى عن عائشة رضي الله عنها قالت ما غرت على امرأة للنبي ﷺ، ما غرت على خديجة هلكت قبل أن

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ١٢٢

